الجزء الثانى

رؤية مستقبلية لخطاب إدوارد سعيد

كمثال ذو أهمية خاصة لتفاعلات العقل العربى والعقل الأمريكى

• **تمهيـــــد**

إذا كنا قد فقدنا مناضلاً ومفكراً كبيراً وأباً باراً للثقافة العربية الإسلامية كإدوارد سعيد لم يبتلعه اليأس والاحباط فى أحلك لحظات تاريخ هذه الأمة ، إلا أننا لم نفقد ما تركه من تراث علمى ونقدى وإعلامى على درجة عالية من الفيض والتميز . إن مثل هذا التراث سيظل محور اهتمام الباحثين الجادين المعنيين بالموضوعات التى خاض فيها ، وأهمها علم الأستشراق ونظريات النقد الأدبى المقارن وصورة العرب والمسلمين وكتابة التاريخ فى الغرب ، والصراع العربى الإسرائيلى والعلاقات العربية الأمريكية من منظوره الخاص كعربى فلسطينى عاش فى أمريكا وتجنس بالجنسية الأمريكية ولكن أدق وصف لحالته ما يقوله هو «أنه عاش دائماً فى حالة من الاقتلاع الدائم . وفى منفى مستمر .

إن هناك مسئولية خاصة تقع على عاتقنا فى إظهار الجوانب المضيئة الكثيرة فى هذا التراث من أجل التفكير بأسلوب «ثقافة التراكم الإيجابى» لكى نستمر فى حمل مشاعل التصدى للتسلط والهيمنة الاستعلائية بكل أشكالها فى الداخل العربى وفى إدارة صراعات الخارج معاً وفى مقاومة كل دروب وصنوف اليأس والاحباط المتفاقمة. تلك المشاعل التى شارك فى حملها إدوارد سعيد بجهود غير مسبوقة وبجرأة أكاديمية وأخلاقية تلقائية وفريدة .

وسؤال هذه الدراسة المحورى فى هذا الجزء الثالث هو :

كيف يمكننا تقديم قراءة خاصة لخطاب إدوارد سعيد تصب فى إدارة خمس معادلات متداخلة وصعبة تدخل فى إدارة المستقبل العربى وفى التدخل الإيجابى لإدارة الصراعات الراهنة والقادمة ؟

لقد رصدت فى سياقات سابقة هذه المعادلات الخمس فى إطار محاولة تدشين سيناريو معيارى NORMATIVE SCENARIO لإدارة العلاقات بين العالم العربى الإسلامى والغرب[1] . وأرى الآن أهمية تقديم رؤية تحليلية لخطاب إدوارد سعيد من خلال فئات تلك المعادلات المتداخلة وهى كما يلى :

(١) محمد وجيه ، حسن ، سيناريوهات الحرب والسلام : دبلوماسية المسار الثانى من منظور لغويات التفاوض الاجتماعية والسياسية ، دار المعرج الدولية ، الرياض ١٩٩٩ .

■ **المعادلة الأولى : السعى لمد رؤوس كبارى دبلوماسية فعالة**

أى السعى لايجاد مساحة لترشيد العلاقات العربية مع الولايات المتحدة . فلا تتحول «العلاقات الاستراتيجية» القائمة إلى علاقات تبعية ولا تتحول السياسة الأمريكية إلى سياسة إسرائيلية عدوانية متطابقة تمام التطابق . فلا تترك مساحة لدينا على الأقل لتقليل حجم الاستعداء . فمن المعروف أن من المخططات الصهيونية وطبقاً لما ورد عن بنجوريون وشاريت هدم أى جسور تواصل إيجابى بين العالم العربى والغرب ، وفى خطاب إدوارد سعيد ما يتلامس مع هذه المعادلة بوضوح حينما يقول : «إن إسرائيل ليست هى أمريكا ولا ينبغى أن تكون ، وإن أمريكا ليست هى إسرائيل ولا ينبغى أن تكون ...» .

والمقصود عند السعى لتحويل هذه المعادلة إلى تحركات فعلية أن ندرك إنه وعلى الرغم من الانحياز الصارخ الأمريكى لإسرائيل . وعلى الرغم من التعاطف المبدئى الذى يكنه الأمريكى المسيحى من أن إسرائيل قد ذكرت فى العهد القديم وأن المسيحى ينتظر «عودة المسيح» و «أن من يلعن إسرائيل إنما يلعن الرب» . وما إلى ذلك من مقولات تستخدم بكثافة هذه الأيام لتبرير أى سياسات إسرائيلية ، وبالرغم من شيوع الصورة السلبية عن العرب بأنهم «متخلفون - همجيون» يكرهون الإسرائيليين الليبرالية المتقدمين ويريدون تدميرهم . إلا أن هذه الصور السلبية والمنطلقات المبدئية لدى الأمريكيين ليست مطلقة على العموم ، وأن هناك تيارات فى هذا المجتمع الأمريكى المركب تدرك وهمية هذا الزيف الشائع والمسيس ، ولقد عبرت هذه التيارات الأمريكية بوضوح عن قناعاتها فى لحظات وتفاعلات بعينها ، وعلينا وفى إطار محاولة ضبط هذه المعادلة الأولى أن نعمق حجم التواصل الفعال مع تلك التيارات الباحثة عن الحقيقة فى أمريكا وهو الأمر الذى تناولته فى عدة مقالات تفصيلية سابقة وألا يتحول السخط والغضب المبرر شعبياً من تحركات سياسة خاطئة ضد العرب والمسلمين إلى سحابة من عدم الروية فى غمار الأحداث للتيارات الأخرى المعارضة والمتعاطفة معنا بهدف تحويل هذا التعاطف إلى فعل إيجابى لأجندتنا وإذا تعمقنا فى دراسة خطاب إدوارد سعيد لوجدنا ما يتلامس تماماً بخصوص هذه المعادلة المهمة ولوجدنا ما يلى :

١ - إن إدوارد سعيد قد نجح بجهود فردية فى غاية التميز وفى لحظات تفاعلية كثيرة فى إدارة هذه المعادلة ، فتواصل إيجابياً مع التيارات الفاعلة الباحثة عن الحقيقة على الساحة الأمريكية ، وهنا نرى تجسيده للعلاقات الإيجابية بجمهور كبير من هؤلاء الباحثين عن الحقيقة من أمثال تشومسكى وكريستوفر هيتشنسون الذى كتب معه كتاباً بعنوان : «فى لوحة الضحايا» Blaming the victims[1] .

(١) Said, Edward. & Hichens, christopher, **BLAMING The Victims**, www Nort on & co Inc. 2001

وكان ذلك فى نقد التغطية الإعلامية السلبية والزائفة لحقائق الصراع العربى الإسرائيلى . لقد أوجد إدوارد سعيد بانتاجه العلمى الغزير وتواجده فى ساحة الرأى العام الأمريكى تأثيرات عميقة فى وجدان الكثيرين من الأمريكيين ، كما أن نجح أن يكون فى حد ذاته جبهة لمناظرة أمثال فؤاد عجمى وبرنارد لويس وغيرهم ممن اتسمت تحليلاتهم بالتحيز الواضح فى تفاعلات بعينها وبالتفعيل السياسى المغلوط بدلاً من التناول العلمى المتعمق والمتوازن والعادل . واستطاع فى ذلك – أن ينازل «أعلام القائمة» فى الولايات المتحدة وتمكن من اختراق هذا الإعلام المتصهين فى لحظات تفاعلية عديدة ، فعلى الرغم من التحيز الشديد فى وسائل الإعلام الأمريكى للصوت الإسرائيلى إلا أن متطلبات الشكل الإعلامى فى الولايات المتحدة أن يتم عرض «الصوت الآخر» ، وبما أن إدوارد سعيد قد فرض نفسه على كونه «ذلك الصوت الآخر» لدى الرأى العام الأمريكى ، فلقد بات هذا الرأى العام معلقاً به ومتشوقاً لسماع رأيه – حتى وإن كان لاذعاً وناقداً إلى أقصى درجة – بل أن من اقترب وعايش هذا الرأى العام الأمريكى لعل أنه يقبل بل يعجب بمن تكون له المقومات والمعقولية لأمثال إدوارد سعيد الذى وكلما سنحت فرصة فى ظل مناظرة إعلامية مع «الصوت الإسرائيلى» نجح سعيد فى انتهازها وتحويل دفة الأمور لصالح قضيته الأولى وهى القضية الفلسطينية ، لأنه يملك مقومات الانتماء والتمرد على التسلط الاستعلائى واللغة بالغة التأثير والوصول ويمكنه توظيف المداخل الثقافية والاقناعية التى كانت عادة ما تمكنه من تصحيح صور وأوضاع مغلوطة سواء فيما يتعلق بتزيف الحقائق المتعلقة بقضايا العالم العربى الإسلامى أو بأجندة الحقوق الفلسطينية وأن يزيل الزيف والتلفيق عن الكثير مما يروج له المروجون فيكشف سطحية حججهم وتهافتها أمام الحجة القوية ودبلوماسية إظهار الحقوق وقوتها البالغة التى تظهر الصدق من الكذب لدى الرأى العام .. وهذه الملكات التفاعلية العالية المستوى هى ما نفتقده إلى أبعد الحدود ، فحتى عندما تتاح فرص ثمينة لمتفاعلين من العرب والمسلمين فى وسائل الإعلام الأمريكية ، فإذن بهم يطيحون بها لقلة التدريب وقلة الممارسة والمعايشة لتضاريس وأساليب الطرح على الساحة الأمريكية ولا أستطيع أن أنسى أنه ومؤخراً استمعت لشخصية كبيرة من المسئولين العرب وهو يتحدث بالإنجليزية ليقول «إننا سنقوم بحملة دعائية لشرح حقائق القضية الفلسطينية وإذن به يستخدم كلمة "PROPAGANDA" بالإنجليزية ، وهى كلمة ذات معنى سلبى للغاية تعنى الكذب والتلفيق أساساً بدلاً من أن يقول بالإنجليزية كلمات مثل «حملة إعلامية» أو «حملة دبلوماسية» أو ما إلى ذلك من مفردات محايدة بعيداً عن «أساليب هزيمة الذات دون قصد بالطبع» .. ولكن «متحدثاً ترجم كلمة «دعاية» دون الاحساس بقيمة المعنى "Semantic Value" ، والأمثلة كثيرة ولا حصر لها

وتسهم سلباً فى تعميق التنميط والقولبة السلبية التى تحاول العناصر الصهيونية تعميقها وهو الذى كان يحرمها منه مفكرنا الكبير إدوارد سعيد فكان يتخطى ذلك التنميط وتلك القولبة ببراعة ودهاء ليبادر بفتح الملفات الحقيقية والتى تزدهر فيها حجج الحق على الباطل والزيف .. ولقد كان إدوارد سعيد وفى عمق خطابه الذى يمكننا وصفه فى إطار هذه المعادلة الأولى ناقداً وبشدة لمستوى وضحالة أساليب التناول والطرح والعرف من قبل ممثلى الدبلوماسية الرسمية العربية والفلسطينية فى الإعلام الأمريكى وكان يقترح أسماء مثل ليلى شهيد وحنان عشراوى ومن هم على مستواهم الراقى فى توصيل المعلومات الحقيقية بأساليب ومرامى اقناعية مدروسة يقبلها العقل العربى وتؤثر عليه . ولكن لم تكن هناك استجابة حقيقية وهو الأمر الذى عادة ما يحبط من مساعى تفعيل هذه المعادلة الأولى حتى ولو بالحد الأدنى المطلوب – عندما يكون الشخص غير المناسب فى المكان غير المناسب – وهذه قضية تتعلق بالداخل العربى كله وتؤثر سلباً على إدارة صراعات الخارج واستنهاض طاقات الإبداع فى الداخل .

- **عندما التقى خطاب السادات وخطاب إدوارد سعيد فى إطار المعادلة الأولى :**

بالرغم من أن إدوارد سعيد يصنف على كونه متبنياً للخطاب الناصرى وأنصاره طبقاً لكثير من الأراء ، إلا أنه يصعب تصنيفه فى خانة ساكنة كما يحاول البعض فى العالم العربى – عادة – القيام بهذا النشاط .. فإدوارد سعيد كان فقط مع الخطاب الثورى التحررى الناصرى الذى ساند القضية الفلسطينية خاصة فيما قبل ١٩٦٧ ، ولكنه كان فى نفس الوقت ضد التسلط والوصاية أى كان مصدرها ولاشك أن للخطاب الناصرى فى تفاعلات عديدة نصيب كبير من ذلك خاصة وأن أسرته قد أصابها فى مصر قدراً كبيراً من عقلية التسلط فاكتشف بالتجربة أن عبد الناصر لم يكن ضد الشيوعيين فقط بل ضد أبناء الطبقة البرجوازية التى تنتمى لها أسرته والتى عاشت فى القاهرة لعدة سنوات فكانت تعيش أجواء التأميم والمصادرات وشعرت كذلك بنوع من المطاردة النفسية نظراً لأن الأب يحمل الجنسية الأمريكية والأمور لا تخلو لدى العقلية التسلطية من التعميم الهائج فى ذلك الوقت خاصة . أما فيما يتعلق بالخطاب الساداتى ، فإن إدوارد سعيد وبالرغم من هجائه لمسارات السلام الرسمية ، إلا أنه ولاشك قد تيقن من أهمية الخطاب الساداتى فى الواقع الأمريكى وتأثيراته الإيجابية فى الرأى العام الأمريكى ، حيث كان السادات يقول «لو استطعت سحب ولو ١٠ ٪ أو ١٥ ٪ من التأييد المطلق الأمريكى لإسرائيل لسعيت من خلالهما لأدشن أرضية أكشف من عليها هذا الكم من الزيف الفادح لحقائق

الصراع وتقليص دور هذا التأييد الأمريكى الأعمى لإسرائيل» . ولقد نجح السادات كثيراً فى هذه الجزئية وأتذكر أن عالم اللغويات والمفكر السياسى الشهير تشومسكى قد ذكر لى فى مقابلة معه[1] أنه ذكر هذا وقال أن من تأثير السادات الكبير على الرأى العام الأمريكى أنه لا يوجد ناشر فى أمريكا يريد أن يكتب كتاباً سلبياً عن السادات لأن القارئ الأمريكى الذى أقتنع بشخص السادات لن يشترى مثل هذا الكتاب أو يعتقد فى موضوعيته . وبالرغم من وجود أوجه خلل فى ممارسات هذا الخطاب الساداتى فى جزيئات بعينها ليس هنا تناول سياقها بالتفصيل إلا أننا نرى هنا ومن خطاب إدوارد سعيد أنه كان على ثناعة كبيرة بتدشين نفس تلك الأرضية وتلك المعادلة وكان ينادى بإعداد العدة عربياً للتمكن من تحقيقها على النطاق الأوسع الذى كان ينبغى وأن يكون .

وفى هذا يلتقى خطابه بخطاب السادات فى هذه الجزئية تحديداً ولكن يبدو أن معضلات تفعيل مثل هذه المعادلة اليوم إن كل من السادات وإدوارد سعيد قد رحلا . وهناك تراجع كبير علس الساحة الأمريكية عربياً وإعلامياً ، ليس فقط بسبب التطورات الخارجة عن السيطرة على تلك الساحة الأمريكية ولكن لوجود تراجع عربى كبير فى الخوف من التفاعل الصحى وهيمنة عقلية الوصاية التى تبدو وأنها حارسة لفكر التوقع والاندهاش الداخلى والابتعاد عن «المخاطر الكبرى للخارج» .

وهو الأمر الذى يؤدى على تعطيل الطاقات وفقدان القدرة على التحرك الإيجابى وعائده ، ولعل من المهم توضيح هذا البعد فى خطاب إدوارد سعيد وذلك من خلال دفاعه فى إحدى مقالاته بجريدة الحياة عن الإعلامية رغدة درغام التى أتهمتها سلطات دولة عربية باتهامات بالغة الإساءة لمجرد تحاورها فى مؤتمر دولى مع شخصيات قيل أنها إسرائيلية أو متصهينة . والمشكلة من وجهة نظر إدوارد سعيد فى مثل هذه السياقات هو حجم التعامل مع «الشكل» الذى لا يزال يحكم العقلية العربية أساساً وليس الجوهر . والأحساس الدوى للغاية بأن الحوار فى الخارج وعلى الساحة الدولية هو فرصة للآخرين «للاختراق» وليس فرصة «للعرب والمسلمين» للتفاعل الإيجابى والعلاقات الإيجابية وكشف الزيف وتوصيل الرسالة بقوة وفاعلية . بخصوص حقائق الصراع واجتذاب أصحاب الأرضيات المشتركة الباحثة عن الحقيقة وعن السلام العادل والمتوازن بكل ثقة واقتدار وأهمية السعى لتدشين قنوات مستمرة للتواصل الإيجابى والتى بدونها لا يمكن ممارسة التأثير الإيجابى فى خضم الأحداث المتتالية سريعة الإيقاع وبالتالى خلو الساحة تماماً لأنصار اللوبى الصهيونى وغيره من الخصوم الذين ينادون اليوم بتقييد وتكبيل الجالية العربية الإسلامية واغلاق قنوات البعثات

(١) مقابلة أجراها كاتب السطور مع المفكر وعالم اللغويات نوام تشومسكى (Noam Chomsky) ، أخبار الأدب ، ١٩٩٣/١٠/٣ .

العلمية مع العالم العربى والإسلامى كما ينادون بترحيل الفلسطينيين من الضفة والقطاع إلى الأردن ومصر . وما إلى ذلك من دعوات إقصائية .

■ **المعادلة الثانية : التصدى «لتصنيع العداء»**

وتتمثل فى التعامل الفعال مع التصدى لعمليات «تصنيع العدو» وكشف النقاب عن جذور الحملة العدائية والدعائية ضد العرب والمسلمين وتوضيح حقيقة الخطاب الدعائى الامبريالى الجديد ، الذى يسعى للسيطرة التامة على مقدرات الأمة العربية الإسلامية ومنازلة هذا الخطاب بالحجة والبرهان وعقلية التكاتف والتضامن العربى الإسلامى فى شتى المجالات للتأثير العميق والحقيقى فى عمق الغرب ذاته ، ليس فقط لفضح زيف الترديف العدائى للإسلام والإرهاب والعرب ، ولكن للاستعداد للتصدى لما هو أبعد من ذلك الترديف وإيضاح الثمن الكبير لسياسات سلسلة حروب العدوان المحتملة والجائرة على حساب دول الوطن العربى والعالم الإسلامى بعيداً عن المسميات الخاطئة «كالامبراطورية الفاضلة» و «حروبها العادلة» التى تطلقها «القلة الاستراتيجية» لصالح أن يكون بن لادن هو عرفات وشارون «بإرهابه المعروف» هو «رجل السلام» !! المعادلة هنا هى كيف نتعامل مع «التحالف ضد الإرهاب» وفى نفس الوقت نمنع الاستهداف الخاطئ لعمق بلاد العالم العربى الإسلامى .

المشكلة فى إدارتنا لهذه المعادلة . أننا نسلك عقلية «إن وأخواتها» الاستاتيكية والإدانة من داخل العالم العربى وعدم الوصول المؤثر على الساحة الأمريكية . وفى إطار هذه المعادلة نجد نضالاً علمياً مهماً يمكننا أن نستثمره فى إدارة تفاعلات هذه المعادلة وهو المتمثل فى أعمال إدوارد سعيد التى حظيت بتغطية واسعة واهتمام كبير فى الغرب كما فى أعماله «الأستشراق»[1] Orientalism وكذلك الثقافة والامبريالية الذى يوضح فيهما كيف أن عمل المستشرقين فى وصف الشرق والشرقيين كان من باب التقزيم والاستكشاف والتمهيد لحقبة الفترة الامبريالية الاستعمارية التى عاش لحظاتها إدوارد سعيد ومن المهم أن تستخلص أنماط الحوار حول أعمال إدوارد سعيد هذه لأنها فى عمق رصد طبيعة الحوار بين العالم العربى الإسلامى والغربى بفكر التراكم الإيجابى مع فهم خصوصية إدوارد سعيد ذاته ، لأن تجربته الشخصية واحساسه العميق على مدى عمره كله بالغربة لا تضاهيه أى تجربة أخرى فبعد أن انتزع وعائلته من فلسطين وعاش فى القاهرة ، انتزعته التفاعلات ليجبر على العيش فى أمريكا وهناك عاش غربة أخرى . هذه التجربة يذكرها دائماً فيذكر بالتفاصيل ذكرياته الأولى فى مدرسة فيكتوريا كولديج وأول مجابهة فتحت عينيه على فكر الاستشراق من خلال تفاعلاته مع المدرسين الإنجليز – الذين يذكرهم ويتذكرهم بالاسم . ويتذكر ما يتعلق بفكرهم بخصوص بلده الأصلى

(١) Said, Edward, **Orientalism**, vintage Books, NY 1979.

فلسطين وبفكر المستشرقين الذين جاءوا إلى المنطقة بمركزية فكرية أوربية مغدقة ودورهم المتعمد أو غير المتعمد فى تعميق فجوة القوة بين الشرق والغرب . كذلك كان من الأعمال التى تعاملت مع عناصر هذه المعادلة الثانية كتابه المهم بعنوان «تغطية الإسلام «Covering Islam» و «الثقافة والامبريالية»[1] .

لقد كشف سعيد النقاب عن هذا الزيف وهذا التصنيع المستمر الذى يأخذ اليوم حلقة جديدة «لعدو غير حقيقى» مفتعل من قبل المجمع العسكرى الامبراطورى الأمريكى ، وهنا يصف سعيد أمريكا وكأنها أصبحت «سجناً كبيراً تحت قبضة هذا المجمع العسكرى» وفى هذا يصرح إدوارد سعيد بافتقاد أمريكا التى يصفها اليوم بأنها «أمريكـــا الأخـرى» The other America ، غير التى عهدها وغير أمريكا حل كـــل المهاجـرين الباحثين عن العدالة والحرية والمساواة» وهنا يقول سعيد «لقد شاهدنا انهياراً لبوتقة الانصهار "Melting Pot" أى أمريكا التى تتسع للجميع وتنصهر فى بوتقتها كل عوامل التاريخ والثقافة والاقتصاد لطبقات المجتمع الأمريكى بكل طوائفه المختلفة لتنتج مجتمعاً متماسكاً يعبر عن فكرة أمريكا المحورية ، إلا أن هذا المفهوم لم يتجسد وانهارت فكرته وحلت مكانه سياسات النزاع والخصومة Policy of contestation .

ويحذر سعيد من خطر كبير قائم اليوم حيث يقول «لا أعرف عن عربى أو مسلم واحد يعيش فى أمريكا اليوم ولا يشعر بالاستعداء بعد تحويله إلى «معسكر الأعداء» وأن العيش فى أمريكا فى هطه اللحظة ليتسم بالعداء والتغريب وأنه وعلى الرغم من التصريحات الرسمية الأمريكية التى تقول أن الإسلام والمسلمين ليسوا أعداء الولايات المتحدة ، إلا أن كل شئ فى الموقف الراهن يقول بعكس ذلك[2] .

ويفيدنا تحليل خطاب سعيد بأن السبيل الوحيد للخروج بأمريكا من المأزق الراهن ولخروج العرب والمسلمين من نفس المأزق ، فلابد من حركة عالمية كبرى تحشد كل المثقفين والمفكرين ونشطاء حقوق الإنسان وحركات السلام الحقيقية بالمساعدة لخروج العالم كله من حروب لم ولن تنتهى يُعرف فيها الإرهاب بشكل أحادى وهو الأمر الذى سيؤدى إلى المزيد من الإرهاب بدلاً من وقفه . والسؤال المركزى هنا : كيف نقوم بدعم مثل الحركة أو بقيادتها واستغلال أى بوادر إيجابية فى هذا السياق وإعادة هيكلة نظرتنا للساحة الخارجة بما يتمشى مع استراتيجية كهذه ؟

---

(١) Said, Edward, Covering Islam : How the Media and the Experts Determine How we see the Rest of the world, Panthon Books, NY. 1981. Said, Edward, Culture & Imperialism, Vintage Books, Np, 1979.

(٢) راجع مقال سعيد بعنوان "The Other America" ، الأهرام ويكلى ٢٠٠٣/٦/٣٠ .

■ المعادلة الثالثة : البحث العلمى والأجندة السياسية العادلة : رؤية تحليلية من واقع ملف خطاب إدوارد سعيد

هناك زاويتان رئيسيتان يمكننا الإشارة إليهما بخصوص هذه المعادلة :

- **الطرح الأول يقول** : إن البحث العلمى الأصلى لابد وأن يبتعد عن أى أجندات سياسية حتى تكون للباحث حرية التناول والعرض والاتفاق أو الاختلاف واتخاذ ما يراه من مواقف بعيداً عن أى تأثيرات لأى أجندة سياسية بعينها .
- **الطرح الثانى يقول** : إن لكل شئ فى هذا العالم منطلق أو أجندة سمها سياسية أو اجتماعية أو ما إلى ذلك من مسميات .. أى أن للباحث توجه يعبر عنه سواء عن تفعيل متعمد أو اندماج تلقائى لأجندة أو منطلق ما .. ولا يمكن فصل الاثنين فى الواقع العملى .

■ المناظرة العلمية القائمة فى الجامعات الأمريكية اليوم:

وبتحليل ملف إدوارد سعيد نجد به مادة ثرية للغاية للفهم العميق لزوايتى الطرح السابقتين .. **فأعمال إدوارد سعيد قد فجرت ومنذ سنوات وإلى اليوم مناظرة علمية واسعة النطاق فى الواقع الأكاديمى الأمريكى كله** ، فهو يعتبر البحث الأستشراقى هو بحث جرى كمقدمة للامبريالية والاستعمارية ولغزو الشرق والسيطرة عليه ، وهنا دار ولا يزال يدور السجال الأكاديمى والمناظرات المتضمنة للحجج والحجج المضادة بشكل لا نستطيع حصره فى هذه الدراسة .. لقد قام ادورد سعيد وقبل رحيله عن عالمنا – بالتأكيد على نظريته بأن أبحاث مثل أبحاث فؤاد عجمى ودانيال بايبز وبرنارد لويس ومارتين كرامر وستانلى كيرتز وغيرهم هى أبحاث «صنعت» لتبرر ما أسماه البعض فى الواقع الأكاديمى الأمريكى «بالامبريالية الإنجيلية / الاستعمارية الجديدة» . وكان نداء إدوارد سعيد وفى الحقيقة أعداد كبيرة من الأكاديميين الأمريكيين المؤيدين له – ومن خلال مناظرات واسعة النطاق فى الجامعات الأمريكية – بأن هناك معارضة أن تتحول الجامعات إلى «بوليس سرى للامبراطورية الجديدة» (Emissary of Empire) حيث تكون هناك الدراسات المبررة للتحركات السياسية للأمبراطورية ولما سُمى «بالحرب العادلة» و «تجفيف المنابع» وما إلى ذلك من مفردات القاموس السياسى الامبراطورى الجديد وهذه القطاعات المعارضة ترى أن فى هذا ابتعاد عن البحث العلمى الرصين الباحث على الحقيقة من أجل أهداف التفاعل الإيجابى المطلوبة بين البشر . وليس لإضفاء شكل العلم على تزييف أو تفعيل لأجندات سياسية جائرة أو قد تكون كذلك .

إذا كان ما سبق يوضح طبيعة المناظرة بين طرف «الطرح الأول» و «الطرح الثانى» أعلاه ، إلا أن النقد الذى وُجه إلى ادورد سعيد أنه هو الآخر يتبع أجندة سياسية تحرك أبحاثه حتى النخاع وأنه «دجمائى واطلاقى» و «تعميمى» ، فى هذا

عدم انصاف ودقة لادورد سعيد وطروحاته من وجهة نظر كاتب السطور – حيث أن الدراسة المتأنية لخطابه توضح مصداقيته فى ربط أجندته العلمية بالسياسية والتميز فى الطرح العلمى وكذلك فى الطرح السياسى – لأنه فى كليهما كان باحثًا عن الحقيقة متصدياً للتسلط والقهر أى كان مصدره فى طرح تنويرى رفيع المستوى ، وهنا نرصد ملامح سريعة من أشكال هذه المصداقية ، فمثلاً وبالرغم من اختياره ليكون عضواً بالمجلس التشريعى الفلسطينى ، إلا أن ذلك لم يمنعه من توجيه النقد الشديد للسلطة الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات ، حينما رأى أن الأمور كانت تتطلب مثل هذا النقد ، فلقد وصف اتفاقية أوسلو بأنها «سراب» (Mirage) سيؤدى إلى التنازلات التى ستؤدى إلى المزيد منها . ولقد صحت رؤيته فى حينها عقب توقيع اتفاقية أوسلو[١] وهناك عشرات من المواقف الأخرى له فى هذا الصدد حيث أنه كان لا يتفاعل ليرضى أحداً بل ليرضى ضميره وما يراه من منطق للمسألة موضع الحوار . ونقد سعيد للسلطة ومشاريع السلام التى أقدمت عليها لم يمنع ادورد سعيد لأن يكون داعية للسلام العادل ويكون من أكبر نشطائه ويسوق الحجج المختلفة التى يرى أنها تؤدى إليه[٢] . لقد رأى دائماً أهمية الابتعاد عن دوائر العنف ودعا إلى إنتفاضة سلمية تدعمها دبلوماسية الحقوق التى ستكون لها الغلبة فى النهاية – وكان متأثراً فى ذلك بنموذج جنوب أفريقيا – إلا أنه دعى إلى أهمية النظر للصورة الكلية وإلى أن صور الإرهاب والقمع التى تمارس ضد الفلسطينيين فتدفعهم للعنف المضاد للدفاع عن أنفسهم هى صور من القمع وانتهاك حقوق الإنسان التى لم يرى العالم فى تاريخه مثيلاً لها ، وكان يرى أن التأييد الأعمى الأمريكى لإسرائيل هو السبب فى وصول الأمور إلى المأزق الراهن . وهنا كان يطرح الحجة القوية والبرهان العلمى الساطع . وعلى الرغم من أن مسميات راجلنا الكبير كانت على غرار أنه أحد أهم مفكرى هذا العصر وأو ايجابية عديدة إلا أن موقفه السياسى فى العلم وفى ذلك جعله هدفاً مستمراً للعربى الصهيونى ، فأسموه «بأستاذ الرعب» (Professor of Terror) و «المفكر الإرهابى» Intellectual Terrorist .

ومثل هذه الأوصاف العدوانية جاءت مؤخراً مرة أخرى ضمن باقة من أبشع الأوصاف الخارجة عن أدنى صور اللياقة والكتابة الأكاديمية الملتزمة من أعضاء بمعهد له اسم غريب وهو «**معهد علمنة المجتمع الإسلامى**»[٣] واسم المعهد فيه من التسلط ولغة الاكراه المقيتة الكثير . والطريف ، أن ادورد سعيد وطبقاً لأصحاب

(١) راجع :
Bleier, Ronald, "on said's the mirage of oslo (rbleier Igc. org.)

(٢) راجع على سبيل المثال ، سعيد ، وإدوارد «نظرة إلى المستقبل» الحياة اللندنية ٢٠٠٣/٤/٧ و «الاعلام الأمريكى المستقل وحادث أوكلاهوما الحياة اللندنية ٩٥/٥/٨ .

(٣) Ibn Warraq, "Debunking Edward said", Institute for the Secularisation of Islamic Society" 11/7/2003.

مدارس التصنيف فى العالم العربى والغربى فإنه «علمانى» بمعنى أنه من الذين يفصلون الدين عن السياسة طبقاً لأحد مستويات مفهوم العلمنة .

من هنا كان هجومه الشديد على جورج بوش الذى خفض الحاجز بين الدين والسياسة بتبنيه «للنبوءات الدينية» لمن سموا «بالمسيحيين الصهاينة / المتصهينيين» ومن وجهة نظر سعيد أن الزج بالدين فى أمور السياسة على طريقة اليمين الأمريكى المتطرف سيؤدى إلى كوارث وهو رده عن الليبرالية الأمريكية المعروفة ، وحينما وصفه البعض بأنه «المدافع عن الإسلام» (Islam Defender) قال أنه المدافع عن الحقيقة. فأى «علمنة» يريدها هذا المعهد الذى كن كل أنواع السباب لادورد سعيد . هذا ولم يخلو الأمر بالطبع من وصمة **«بمعاداة السامية»** تلك التهمة الجاهزة دائماً . إن الرجل يتحدث من خلال الحجج العلمية التى تبتعد عن الأدلة الفاسدة التى يروج له من يسبونه . من هنا احترمه كل أصحاب العلم والعقول المنصفة وسبه سفهاء التزوير والتزييف المختفين وراء «علم مفتعل ومسيس» يكتشف أمره بسهولة عند التحليل الصارم ، وها هو W. J. T Mitchell محرر مجلة الاستقصاء النقدى يكتب مقالاً نشرته دورية التعليم العالى ينعى فيه سعيد بمقال بعنوان «الضمير النقدى يتذكر ادورد سعيد فيقول بالنص :

■ سعيد «وسيف معادة السامية»

«إن ظهور ادورد سعيد فى تفاعلات الرأى العام الأمريكى وقد صاحبه وباء التهديد بالقتل الذى كان دائماً مالا يلتفت إليه إدوارد (كما كان لا يلتفت إلى مرض السرطان الذى أصابه) . وكذلك كان المتحدثون الذين يوجهون إليه الأسئلة – يحاولون تأطير كلماته على كونها «معاداة للسامية» . وكانوا يصنفون تعليقاته الناقدة للسياسة الإسرائيلية بأنها «أفعال معادية للسامية» وكانوا يسوقون إليه اتهامات بالعنصرية وذلك فى إطار حملة استهدفته واستهدفت كل من يضع علامات استفهام بخصوص سياسات إسرائيل»[1] .

وهنا يقول ميتشل **«وإذا كان الأمر على هذا المنوال فلا نخشى أن نكون كلنا «إدوارد سعيد»**[2] وهذه المقولة هى أنتصار واضح للعلم من أجل الحقائق وللبراهين الساطعة ودحض وامتعاض وتمرد على ضغوط التزييف والكذب والتلفيق الصهيونية التى سأمها كل غيور على كرامته وسلامة ذهنيته وضميره . فها هو ادورد سعيد ينتصر له بعد مماته من خلال كلمات ميتشل . وها هو الضمير الأوروبى لشعوب الاتحاد الأوروبى يقول كلمته الواضحة فى الاستفتاء الذى طرحه الاتحاد الأوروبى (فى نوفمبر ٢٠٠٣) عن الدول التى تعد مصدر التهديد للسلام العالمى . فجاءت

(١) راجع
Mitchell, W J. The chronicle of Higher Education, oct. 1. 2003.

(٢) السابق .

الإجابة صدمة للسياسة الإسرائيلية والدبلوماسية الأوروبية حيث أعتبر ٦٠ ٪ من العينة أن إسرائيل هى الخطر الأول على السلام العالمى . كما وضعوا الولايات المتحدة الأمريكية جنباً إلى جنب الدول التى تعتبر كمصدر للتهديد الدولى» . وهو ما يؤكده كل أصحاب العقول المنصفة ومن يتصدى للسياسة بعقلية التحليل العلمى الموضوعى وهو ما كان يقوم به ادورد سعيد ونوم تشومسكى وغيرهما من العشرات من الباحثين الذين يربطون العلم بأجندة السياسة المرتبطة بالعدل والانصاف . ومن الملاحظ هنا أن قوة الخلفية العلمية الحقيقية لكل من ادورد سعيد ونوم تشومسكى قد دعمت إلى أبعد الحدود أرضية النقد الواضح واللازم الذى ظلا يوجهونه ومن هم على غرارهم للمؤسسة السياسية الأمريكية والإسرائيلية (فى تفاعلات التجاوزات الواضحة) ، خاصة وأن لكل منهما رصيداً لا يمكن تجاهله ولا يمكن له التصنيف والتأطير الصهيونية أن يكون لها تأثير حقيقى يذكر أمام صدق وقوة الحجة . وحقائق الأمور فى نهاية المطاف .

وإذا كان أحد الأمريكيين من أصحاب العقول المنصفة مثل ميتشل الذى استشهدنا بمقولته التى ذكر فيها «إذا كان ما فعله ادورد سعيد طبقاً للبعض على كونه «معاداة للسامية» ، فإننا كلنا ادورد سعيد ، ذلك بعد أن رحل ادورد سعيد ووجب تأمل ما قدم من جهود غير مسبوقة ، فإن هناك العديد من المقالات المماثلة التى تحمل نفس اللواء الذى رفعه ادورد سعيد ، ففى مقال على درجة كبيرة من الأهمية لكاتبه فيجاى براشاد (وهو مدير الدراسات الدولية بكلية ترينتى) بعنوان : «فى مواجهة الإنجيليين الامبيرياليين»[1] ينتقد فيه مشروع قرار جديد للكونجرس الأمريكى وينادى بتكاتف كل المنمين والمدافعين عن واقع أكاديمى حر كصمام أمان للمجتمع الأمريكى لوقف ذلك المشروع ، لأنه مشروع يرى أن من شأنه تقييد حرية البحث العلمى وصبغ مجالات الدراسات الأكاديمية لتبرير التحركات السياسية الأمبراطورية أو ما أطلق عليه «الأمبريالية الإنجيلية الجديدة» ، ويرصد بالتفصيل أوجه النقد العديدة فى هذا الصدد ويعود ليستشهد بمقولات عديدة لادورد سعيد من دراسته عن «الاستشراق» وكذلك ارائه فى هذا الصدد قبل رحيله خاصة فيما يتعلق بدقة لناقوس الخطر على الواقع الأكاديمى اليوم من جراء التدخل الحكومى لصالح سياسات بعينها ورصد ميزانيات ضخمة فى هذا الصدد .

(١) راجع Prashad, Vijay, "Confronting the Evangelical Imperialists, Counter punch, political News letter, Nov. 13, 2003.

■ المعادلـــة الرابعـــة : إدارة عمليات النقد المزدوج وبناء القوة المزدوج

بناء القوة فى الداخل كأساس للتأثير الإيجابى فى الخارج وتدشين جسور التفاعل الإيجابى وثقافة الحوار والتفاوض الإيجابى بين عناصر الأمة لإعادة هيكلة المواقف التفاوضية على الصعيد الخارجى .

وهذه المعادلة تقترب كثيراً مما وصفه السيد يسين «بالنقد المزدوج» . لاشك أن أمر التضامن الداخلى وإدارة الاختلافات بشكل فعال لهى من أهم عناصر القوة للعرب والمسلمين وبناء الجسور بين الجاليات العربية الإسلامية وقواعد الموطن الرئيسى لها (هو من الأمور الحيوية المطلوب تحقيقها . فهذا من شأنه إعادة هيكلة أرضية التفاوض والحوار بما يسمح بأن يحترم الجميع كلمتنا . ولهذا الأمر تحركات مهمة ينبغى إدراكها لتفعيل وضبط هذه المعادلة ، وما يمكننا رؤيته ورصده فى خطاب ادورد سعيد يتمشى تماماً مع قناعات كل مخلص لهذه الأمة العريقة التى لابد لها أن تعيد صفوفها وتنظمها خاصة فى هذه الأوضاع المستجدة الصعبة ، وهنا نرصد ما يلى من خطاب ادورد سعيد :

(أ) السعى لمنع عملية اختطاف الإسلام ليعبر عنه أنصار العنف والهجوم على الأهداف المدنية وكذلك بناء الجسور مع كل من يعارض أختطاف الشرعية الدولية والخروج عنها وتحويل العالم إلى جزيرة كبرى من الفوضى ومن العنف والعنف المضاد .

(ب) كشف زيف «صراع الحضارات» والترويج له وهو ما أسماه ادورد سعيد «بصدام الجهالات» Clashes of Ignorances[1] .

(جـ) تفعيل التضامن العربى / العربى والعربى / الإسلامى والعربى الإسلامى / الدولى وإدارة الصراع بمستوى إنسانى احتوائى يتحلى بالقوة المعنوية والمادية الفاعلة . (راجع مقال سعيد فى هذا الاطار بعنوان «نظرة إلى المستقبل»[2] .

(د) عدم التردد فى تصحيح أخطاء الداخل العربى الإسلامى الباهظة التكاليف والتى هى فى عرض مستمر .. والتعامل بجدية فى هذا الصدد ونبذ فكر «التسحلف» والتحدى الخاطئ .. لأنه وفى خضم الحملة المسعورة ذات الأهداف الخبيثة ضدنا .. لا يمكن لأى عاقل ومنتمى بحق لهذه الأمة أن يتجاهل الأوصاف الخاصة بسمات التدهور الراهن فى العالم العربى الإسلامى من قلة الديمقراطية أو انعدامها وإلغاء مبدأ التداول الصحى والإنسانى للسلطة وما إلى ذلك من اتهامات «صحيحة مع الأسف» . فلا نصحح هذه الأوضاع المزرية . لأنها جاءت على لسان هذا أو ذاك بعقلية العند السلبى وتبنى سيناريو النعامة .

(١) راجع
Said, Edward, "Clash of Ignorance",www.zmag.org/said clash. htm.

(٢) راجع ، سعيد ، إدوارد «نظرة إلى المستقبل» الحياة اللندنية ٢٠٠٣/٤/٧ .

■ المعادلة الخامسة : السعى لإعادة كتابة التاريخ من منظور عربى إسلامى

من خلال حشد جهود تدشين الأرشيف العربى والسعى لفكر التوصيل الجيد إلى الغرب .. لإعادة كتابة التاريخ على أسس راسخة تتعامل مع مستويات عديدة من عدم الدقة وكذلك مع الزيف الكبير القائم وتدحضه فى محاولة مطلوبة لإعادة أمور كثيرة لنصابها وهنا يتردد ويتكرر فى خطاب ادورد سعيد نداؤه **بأهمية كتابة التاريخ الفلسطينى ، فادورد سعيد يرى أن ما كُتب فى الغرب عن هذا التاريخ الفلسطينى تحديداً قد كُتب بأقلام إسرائيلية أو أمريكية أو غربية عموماً أما الجهود العربية فهى لا تزال متناثرة وغير مكتملة** وغير متوفرة للغربيين . وفى هذا تقصير كبير ، وأتذكر هنا نفس هذه المقولة التى رددها لى المفكر الكبير ناعوم تشومسكى أثناء حوار لى معه ، عندما طرح رؤية معلوماتية غير دقيقة عن حرب أكتوبر رمضان المجيدة وما تلاها من أحداث ، وقمت بتنفيذ أطروحاته ومناقشتها ، فكان رده بأسلوب العالم الكبير والمتواضع تواضع العلماء أن قال لى «أشكرك لتصحيح المعلومة ، ولكن تعرف أن مشكلتكم الكبيرة تتمثل فى عدم وجود «الأرشيف العربى الذى يصل لنا فى الغرب، فنعتمد على الأرشيف الغربى والإسرائيلى[1] . اختتم هذه الجزئية بالقول ، بأننا نفقد الكثير بعدم إدارة هذه المعادلة المهمة على الوجه المطلوب ، فمثلاً إذا لم نستطع أن نستخدم حرب أكتوبر رمضان المجيدة كأداة من أدوات الردع الاستراتيجى – من خلال تفويت فرصة على مزيفى الحقائق والوقائع التاريخية .

فإننا نخطئ خطأين ، الأول فى حق أنفسنا لأن ثمن عدم الردع سيكون كبيراً والثانى أن يصدق المزيفون زيفهم ويتحرك الواهمون من أصحاب قصر النظر السياسى والإنسانى من دعاة سلسلة الحروب لتجفيف ما أسموه «بالمستنقع العربى الإسلامى»!! . إن ترك الزيف والمعلومات الخاطئة والمغلوطة دون تصحيح بصوت يصل وبأسلوب علمى له تأثيره يمكن «أصحاب تلك القلة الاستراتيجية» الداعية لشن الحروب بالوكالة لصالح أجندة التوسع الإسرائيلى من ترويج الأكاذيب للرأى العام الأمريكى والغربى عموماً ليعطى الضوء الأخضر لحروب جائرة ولظلم إنسانى لا يغتفر.. **من هنا كان لابد من التحرك العلمى المدروس لتفعيل هذه المعادلة الخامسة وتفعيل حزمة كل هذه المعادلات الخمسة التى تحدثنا عنها بفكر التراكم وتفعيل كل طاقات هذه الأمة فى إطار سيناريو معيارى Normative Scenario** نضعه كخطة قصيرة المدى وطويلة المدى واجبة التفعيل لإظهار المعدن الصلب والثمين لجوهر هذه الأمة العربية الإسلامية المعطاة دوماً للحضارة الإنسانية ولهذا العالم – فإن توفرت الإرادة – فهى لن تعجز عن استدعاء كل عوامل قوتها واستنفار جهود كل أبنائها وعلمائها المنتشرون فى كل بقاع الأرض ممن يبنون التنمية ويسعون للنماء فى كافة

(١) راجع ، مقابلة كاتب السطور مع ناعوم تشومسكى ، اخبار الأدب ١٩٩٣/١٠/٣ .

المجالات . ويكفى أن تكون البداية القوية من «جند مصر» فى كافة المجالات والتخصصات «فهم فى رباط إلى «يوم الدين» كما أخبرنا الرسول ﷺ ولقد استطاعت هذه الأمة أن تواجه التحديات كلما ازدادت حلكة الليل سواداً .. وعلينا أن نعمل بفكر الترابط والتراكم العلمى والمنهجى ولعلنا نكون قد استطعنا توضيح ما قصدناه بمعادلات المستقبل العربى الخمسة كأساس منهجى أولى لإدارة العلاقات المركبة بين العالم العربى والإسلامى والغرب . ولعلنا قد وفقنا فى محاولة تقديم رؤية لهذه المعادلات من خلال قراءة التراث الفكرى والعلمى – بصورة أولية – فى سياقنا هذا لابن بار من أبناء الثقافة العربية الإسلامية وهو الراحل المفكر الكبير والمناضل العربى الأصيل إدوارد سعيد الذى كان عطائه متميزاً وغزيراً . ولعلنا نكون بذلك قد وضعنا إحدى لبنات التراكم المطلوب والمفتقد إلى أبعد الحدود فى ممارسات واقعنا الثقافى والأكاديمى والسياسى والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان .

obeikandl.com